الأستاذ أحمد عبيد
الأنصاري الخزرجي
(١٣١٠ ــ ١٤٠٩هـ)
(١٨٩٣ ــ ١٩٨٩م)

الدكتور شاكر الفحام

يتتمي الأستاذ أحمد عبيد، رحمه الله وأسبغ عليه واسع رضوانه، إلى الجيل الذي نشأ في بلاد الشام في مطالع المئة الرابعة عشرة، حين بدأت تباشير اليقظة العربية تشرق بأنوارها، ونسمات الشعور القومي تهبُّ رفيقة هادئة، ويتناشدُ الناس بصوت خافت أمثال: (تنبهوا واستفيقوا أيها العرب)(١).

ويحدثنا الأستاذ أحمد عبيد عما كان لشيخه الطباع(٢) الذي أشرف على تعليمه في المدرسة الريحانية(٣) من أثار بليغة حبَّبت إليه العروبة والعربية، وفطرته على التعلق بهما تعلقاً ملكَ عليه نفسه، ووقف لهما حياته، وكرَّهت إليه تلك العجرفةَ التركية التي تصرُّ على تجاهل العربية المبينة، وتلحُّ على فرض اللغة التركية

★ أُلقيت هذه الكلمة في الحفل الذي أقامته وزارة الثقافة في مكتبة الأسد تأبيناً للفقيد أحمد عبيد (في مساء يوم السبت ١٤٠٩/١٠/٨هـ ــ ١٩٨٩/٥/١٣م).

(١) مطلع قصيدة تُنسب إلى ابراهيم اليازجي قالها يحض العرب على النهوض (يقظة العرب/مقدمة نبيه أمين فارس: ١١ ــ ١٢، ١٤).

(٢) هو الأستاذ محمد خير الطباع (١٨٨٠ ــ ١٩١١) مؤسس المدرسة الوطنية (التي سُميت بعد ذلك: الكلية العلمية الوطنية). وكان من أهل الأدب والفضل (تاريخ علماء دمشق ١: ٢٦٦ ــ ٢٦٧).

(٣) المدرسة الريحانية: كانت بجوار المدرسة النورية، إلى غربيّها. وهي من مدارس الحنفية الشهيرة (الدارس في تاريخ المدارس ١: ٥٢٢ ــ ٥٢٦، منادمة الأطلال: ١٧٢ ــ ١٧٣).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

في أرض العروبة، فهي لا تدرّس إلا بها، وتقسرُ الناسَ على اصطناعها في الحياة العامة والادارة والتعلم والتعليم.

كان أحمد عبيد من هذا الجيل العربي الذي تفتح وعيه القومي، وضاق ذرعاً بما فرضه العثمانيون من عسف وظلم وجهل على البلاد العربية، وتطلع، كما تطلع أبناء جيله، إلى ما كان عليه العرب في ماضيهم من مجد باذخ، وحضارة زاهرة، فاندفع يثقف نفسه، ويبحث عن الكتب العربية التي تلبّي طَلِبته، وتستجيبُ لرغبته، وأصبح صديق الكتاب وأليفه، لا ينفك عن القراءة والمطالعة وتعليق الفوائد.

وظهرت موهبته مبكرة، فإذا هو يقرض الشعر، بل يتفوق على مَنْ سواه، لينال الجائزة في نظم القريض، وهو لا يزال فتىً غضَّ الاهاب في السادسة عشرة من عمره.

وأتاحت له القراءة العريضة، وصحبةُ الكتب أن تتسع آفاقه، وتتعدد قدراته، فإذا هو يشارك في قول الشعر والكتابة، والنقد الأدبي والمسرحي، ثم لا ينسى حظه في التحقيق واحياء التراث العربي الذي أحبه الحب الجم، فنهض بأعبائه على خير الوجوه، فقد تزود له بمعرفة في اللغة عميقة، واطلاع على التاريخ العربي، وثقافة عامة شاملة تسعفه وتلبيه.

وحين قُدِّر له أن ينهض بتحقيق (تخميس لامية ابن الوردي لابن الملاح) (دمشق ١٣٢٧ هـ ــ ١٩٠٩ م)، وكان في نحو العشرين من عمره، كان قد خطَّ طريقه اللاحب الذي ارتضاه ليمضي فيه إلى آخر الشوط في حياته.

لقد نفض يديه من الواقع المرير المؤلم الذي يحيط به ليرى في الحضارة العربية الزاهرة مثله الأعلى الذي يرنو إليه، وفي أيام الشموخ والعزة العربية ما يتطلع إليه فهو يوازن أبداً بين الماضي الكريم والحاضر المتخلف، ليدعو ويستثير الهمم، وليشارك أبناءَ جيله في العمل الدائب للنهوض بالأمة العربية كي تعود سيرتها الأولى.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأستاذ أحمد عبيد

١٨٩٣ ـ ١٩٨٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإن الهدف العظيم لتتعدد إليه المسالك، وتتشعب لبلوغه الطرق.

وقد رأى الأستاذ أحمد عبيد أن قدره ومصيره أن يقف نفسه وجهده ووقته لتنمية الوعي القومي، وتحريك المشاعر الوطنية، باحياء تراث الأجداد الأكرمين، والكشف عن ماضي العرب المجيد، وبالاهابة بقومه، وهو الشاعر الكاتب، أن يهبوا لينفضوا عنهم غبار السنين، ويمزّقوا أردية القرون المظلمة كي يشاركوا في صنع التاريخ والحضارة.

وكذلك فعل، فقد اختار المكتبة مثابة له وموئلاً ينهض عن طريقها بما أخذ به نفسه، وشدَّ له حيازيمه. إن حبه لأمته ولغته، وإن تعلقه بالمثل العليا في الحياة، هما الخيط الذي ينظم كل أعماله وتصرفاته، وهما المفتاح الذي يفسر منطلقاته ومآتيه وما قام به طوال حياته.

لِمَ اختار أن يسمي مكتبته المكتبة العربية؟ أليس هذا وفاء واستجابة لنزعة جيله الذي نذر نفسه للعمل القومي؟ ألم يكن شعار الدولة العربية التي قامت في دمشق آنذاك أن تُطلق صفة العروبة على كل منشآتها: فأقامت معهد الحقوق العربي، والمعهد الطبي العربي، ودار الكتب العربية، والمجمع العلمي العربي، والنادي العربي، ومثل ذلك كثير كثير.

وكان رحمه الله جم النشاط، يعمل ليل نهار، لا يفتر ولا يملّ، قد بُسِطت أمام عينيه المكتبةُ العربية بمخطوطاتها ومطبوعاتها، وأسعفته ذاكرة قوية تلبيه وتستجيب له، وذكاءٌ متقد، وبصيرة نفاذة.

إنه ليذكّرني، وأنا أستعرض صفاته ومواهبه وقدراته المتعددة، وعمله وصبرّه بأولئك الوراقين العظام، ذوي الثقافة العريضة الواسعة، الذين أغنوا المكتبة العربية، ورفعوا من شأنها أمثال ابن النديم صاحب الفهرست.

ويكفيني أن أذكر تعليقاته القيّمة على كتاب الأعلام للزركلي ليتراءى لنا أي عالم بين جنبيه! فإذا ضممت إلى ذلك ما زين به الكتب التي تصدى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لتحقيقها من فوائد ونوادر، وما أفصحت به أشعارهُ وكتاباته وتآليفه من ثقافة عميقة محيطة، ونظرات بعيدة، اكتملت لك صورة أحمد عبيد العالم الراوية المحدّث الناقد الورّاق.

ولقد كان رحمه الله، متواضعاً كل التواضع، يبتعد عن الشهرة وينزوي بعيداً عن الأنوار والضجيج. وإذا قُدِّر لك أن تتصفح كتاباً قرأه أدهشك ما علق به على حواشيه من تصحيحات وفوائد ومراجع، يمسكها لا ينشرها، إنه سعيد أن يقدمها إلى صاحب الكتاب فحسب، ولكنه لا تنزع به نفسه إلى ما وراء ذلك.

كان يرى في السلف الصالح مَثَلَه وقُدوته، فكان يتجمَّلُ بأخلاقهم، ويتحلى بمناقبهم من النزاهة والصدق والأمانة وأمثالها من الشيم الحميدة، يعرف ذلك له كلٌ من كان له صلة به، أو تعلَّق منه بسبب. ولا أريد أن أعدِّدَ محامدَه، وأشيد بصفاته. بل يكفيني أن أقص حادثة جرت معي في عام ١٩٤٤م، ما زالت الذاكرة تختزنها حتى يومنا هذا.

كنت أبحث عن كتاب (بغية الوعاة للسيوطي) في مكتبات دمشق القائمة في حي الصالحية، فلم أظفر ببغيتي، ونصح لي ناصح منهم أن أذهب إلى المكتبة العربية في سوق الحميدية لأجد طلبتي. كانت تلك أول زيارة لي للمكتبة. وواجهني في مدخلها رجال تلوح عليهم سيما العلم، قد تحلقوا يتحدثون ويتناقلون أخبار الكتب والمجلات، ويتبادلون ما يعرفون من أنباء إخوانهم وأصدقائهم العلماء والكتاب والشعراء. وقفتُ هنيهة استمتع بأحاديثهم العذاب، ثم طلبت ما جئت من أجله. وفي أقل من القليل جاؤوني بالكتاب، فأمسكه الأستاذ أحمد عبيد رحمه الله بيده، ونظر في صفحة الغلاف الداخلية قبل أن يقدمه إلي، ثم فتح الكتاب على صفحة محددة ليقول لي: إن في الكتاب عيباً فقد تمزق طرف هذه الورقة فيه.

أخذتُ الكتاب تتملكني الدهشة لهذه الأمانة والدقة. وسألتُ:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أيمكنني الحصول على نسخة أخرى سالمة. وأجابني بهدوء العالم الواثق: إنها النسخة الوحيدة الباقية في المكتبة، ولن تجد الكتاب في مكتبة أخرى، فالطبعة نادرة.

وظلت هذه المقابلة الأولى بما تحمل من معانٍ راسخةً في نفسي. فأنا لم أقابل بائع كتبٍ كما عهدتُ من قبل، ولكني قابلتُ عالماً تُعْقد المجالسُ العلمية في مكتبته، ويقصده العلماء الوافدون من كل صقع، يسألونه ويفيدون من علمه ومعرفته. ثم هو من ذلك الجيل الكريم الذي لا يهمه الكسب أنَّى أتى، بل شعاره الكسب الحلال والأمانة والنزاهة في المعاملة.

ما زلت أذكر مجالسه حين كنتُ أزوره في بيته في أواخر أيامه، بعد أن اضطره المرض إلى الاعتكاف، فإذا هو كالعهد به دائماً، حيُّ الذاكرة، يحدثني حديث الكتب، وما قرأ في أيامه الماضية، وما علّق به، ويستشهد على ما يذهب إليه من رأي بشواهد تنثال عليه دون تمهل، وتسعفه الذاكرة بما يريد من المخطوطات والمطبوعات.

إن الأستاذ أحمد عبيد واحد من أولئك النفر القلائل الذين بقوا بين ظهرانينا يمثلون هذا الجيل المعطاء الذي تحدثت عنه. لقد تفرقت بأبناء ذلك الجيل العظيم السبلُ في خدمة وطنهم، والذود عن أرضهم، ولكنهم ظلوا جميعاً مخلصين لأمتهم وبلدهم، لم يبدّلوا ولم يغيّروا، ولم يهنوا ولم يجزعوا حتى وافاهم الأجل صابرين مصابرين، فجزاهم الله عن أمتهم وبلدهم خير الجزاء وأزكاه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net